ولامست قَدمي الصِّراط

هل تذكروننني؟ إنني هو... أخوكم المسكين... المنادي من تحت طيات الوحل... المعذب بين جنبات التراب... إنني أنا تلك النطفة المعلقة في قرارٍ مكين... أنا ذلك الجنين الساجد في رحم أمه... ذلك الطفل الأعمى الباكي حين اشتم رائحة الدنيا... ذلك الصبي اللاهي بالكرة... ذلك الشاب مفتول السواعد المتأجج بلهيب النشاط... ذلك الكهل المهموم بمشاغل الدنيا... ذلك الشيخ المتهالك ذو الثلاث أرجل الذي لا يعلم من بعد علم شيئاً... أنا من نهايته الرجوع إلى بدايته... أنا من ناداكم من بيت الدود لتستيقظوا... لتفيقوا... قبل أن تحين قيامتكم... تسألونني أين أنا الآن؟... ردّي لا أعرف... وماذا لو عرفت؟... لو عرفت أنني على شفا حفرة من النار... جناتُ عدنٍ أمامي... الفردوس الأعلى في ربضها... جميع البشرية ناظرةٌ إليَّ... والريح عاصفة... هل سأصل؟ الريح قاصفة... هل سأتخطى؟ لهيب النيران يلفحني... ونسيم الجنة يداعبني... عيون بني آدم تراقب خطاياي المتلعثمة...

تسألونني لماذا لا أرجع؟... بالله عليكم كيف أرجع ووراثي نمل البشر... كلٌ بدوره... وكلٌ حسب عمله... كما يدين يدان...

ملايين المليارات من البشر يخوضون نفس الموقف... أنفاسهم الساخنة تلفح وجهي... أين كانت مؤتمرات السكان من هؤلاء؟... لا تسمع إلا صفير الريح العاتية... وخشعت الأصوات للرحمٰن فلا تسمع إلا همساً.

أمامي بعض أشخاص... سأخوض وإياهم الصراط لا محالة... أولهم ترتعد فرائصه كالفرخ المبلل من الذعر... ويصيح:

لا تدفعوني إلى الأمام بالله عليكم... أرجعوني... لن أتحمل... هل من مجيب؟... وهل من منقذ؟... لا عاصم اليوم إلا من رحم ربي...

يُساق إلى الأمام... ورجلاه لا تتحركان... يجر ساقيه خلفه... ويُجر هو من قفاه كالقط المولود... صياحه كالديك... نحيبه كالذئب... حشرجته كالفيل... عبراته كالسيل... ماضيه الدنيا وماضيه كان... وحاضره ما نرى وحاضره الآن... أما ما سيأتي فآبد لم يكن في الحسبان... إما

لهيب مستعر وإما جنات ونهر... ولا ثالث لهما... فذلك رجل أبى واستكبر... أو كسُل واستكثر... أو بخُل واستأثر... إنه ظن أن لن يحور... بلى إن ربه كان به بصيراً... وفجأة... تسمّر الموقف برمته... المسكين يقف متهالكاً على شفا الصراط... لا يسمع إلا صوت الريح الضارية... وصوت زفير النيران وهي تفور... تكاد تميز من الغيظ... تلبّدت السحبُ الحمراء بالغمام... ووقف الخلق مشدوهين... مذهولين... على ما فاتهم نادمين...

بدأ المسكين يخطو أولى خطواته نحو الجحيم... الذي كشّر عن أنيابه... وأشعل أنفاسه... وقال: هل من مزيد؟...

لم يكد يخطو خطوة واحدة حتى بدأ في الترنح... وبصعوبة بالغة تمكن من الخطوة الثانية... ثم اختل توازنه مرة أخرى... والريح عاصفة... وهو كالريشة في مهبها... أرجله ترتعد... ووجهه الأزرق يلتمع في لحظات البرق الخاطف... هل هو الودق... أم هو دمع الندم ممزوجاً بعرق الرعب...؟

رأيته بعيني هاتين وهو يتهاوى... فيتشبث بالصراط بكل ما أوتي من قوة بيديه... والنار تصرخ هل من مزيد... يتلفت

حوله في يأس... فلا يرى فوق رأسه إلا الصراط... وتحته النار تصرخ... ويداه لن تتحملا لا محالة... وسيسقط دون شك... كم سرقت هاتان اليدان... وكم مسكت كأساً... وكم مشت هاتان الرجلان إلى الحرام... وكله ماضٍ... والماضي كان... وسقط أمامي... وهو يبكي وسيظلّ يبكي إلى الأبد...

وافتر الشيطان عن ثغرٍ باسم شامت... فها هو حليف آخر قد أغواه... ولم يكن عليه من سلطان... إلا أن دعاه فاستجاب له.. قاده إلى النار ثم تبرأ منه... وصرخت النار هل من مزيد..؟

وجاء الدور على من يليه...

تقدم في ثبات... هدأت الريح بعض الشيء... وانقطع المطر... بدأ يخطو خطوات متأنية... تعمّد ألا ينظر تحته... كان نظره إلى آخر الصراط... إلى أبواب الجنة الثمانية... عطرها يفوح في أعاليها... وأريجها يداعب أنفه... هل سيصل؟ لقد تخطى النصف... يسمع الفردوس الأعلى من الجنة تتكلم... يسمعها تقول: قد أفلح المؤمنون... يزداد شوقه... فبدأ يسرع... أنفاسه تتلاحق... وصدره يلهث... فجأة اختل توازنه... جثا

على ركبتيه... وأخذ يتحرك في بطء... كالطفل الرضيع... سابقته السلاحف... أخذ يتصبّب عرقاً... وبكى وصحت النار من سباتها وأخذت تصرخ... تنبه الشيطان وتأبه... ثم خارت قواه... ترنح أمامي... و... سقط... ولكن مهلاً... ماذا أرى... لقد طار جسده تارة أخرى بعدما سقط... وتعلق جسده في الصراط بفضل ربه...

تسألونني عن السبب... الأمر متروك لمالك الأسباب... ربما بكت تلك العيون الدامعة من خشية الله لحظة في عمره... ربما ندم على ذنب ارتكبه أو إثم اقترفه... فغلب قانون التوبة قانون الشجرة... ربما؟... أو هي الشفاعة...

أخذ يزحف على بطنه حتى وصل إلى هدفه... إلى جنات الخلود... إلى أنهار الخمر واللبن والماء... إلى النعيم الذي لا ينفد وإلى قرة العين التي لا تنقطع... وكان الله غفوراً رحيماً.

وجاء الدور على من بعده...

على من أمامي مباشرةً... لباسه حرير... خضر كعبقريٍ حسان... بيضٌ كاللؤلؤ المكنون...

تقدم في وجل.... ارتد طرفي للحظة.... وعندما فتحت عيني كان قد وصل.... هكذا بسرعة البرق.... رأيته ناظراً

إليَّ... لقد تذكرته الآن.... إنه أنيسي في بيت الوحدة.... علمه نور.... ونوره برهان... وإيمانه طاقة.... وخلقه سلام...

كم قطع نهاره في ذكر الله... كم تجافى جنبه عن المضاجع... كم استغفر ربه بالأسحار... كم صلى والناس نيام... كم وَصَلَ الأرحام... كم عاش مع الناس في وئام...

أتخيله متوركاً بعد صلاته يدعو ربه خوفاً وطمعاً... يداه مرفوعتان إلى السماء... والسماء توشك أن تسطع بنور شمس يوم جديد... وصوت الآذان يكبر في الآفاق بين جنبات الجبال... وصياح الديوك يوحد الله... وكل شيء يسبح الله ويخر له عن اليمين وعن الشمائل سجداً ونام من نام من البشر... وكل النار من مستصغر الشرر.

ثم يمسح وجهه بيديه ويخرّ لذقنه ساجداً ويبكي ويزيده خشوعاً... فتُفتح أبواب الجنة الثمانية... ويسمع في الأصداء صوت الفردوس الأعلى يردد: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون: 1]...

ثم جاء الدور على من بعده...

لم يتحرك أحد... ولم يتقدم أحدٌ إلى بداية الصراط... تلّفتُ حولي كالمجنون يا إلهي، لقد تنبهت الآن... إنه

دوري... يا إلٰهي، أين أذهب؟ ماذا أفعل؟ بل ماذا سيُفعل بي؟ لا أدري...

وبدأت قدماي تقوداني إلى مصيري المحتوم... إلى حافة الصراط... حتى أصبحت على قيد أنملة منه... يا إلٰهي: إنه أدق من فتيل الرطب... إنه أحدُّ من سيف العرب... يا ويلتي من مصيرٍ قد اقترب...

نظرت إلى آخره فوجدته ما زال ناظراً في عيني... عيناه الثاقبتان تخترقاني هل يساعدني؟... هل يشفع لي؟... لا أدري...

وبدأت رحلتي إلى قدري المجهول... وخطوت أولى خطواتي إلى البداية ولامست قدمي الصراط... ومن تحتي جهنم... وإن منكم إلا واردها كان حتماً مقضياً... والبداية جسر... والجسر صراط... تحته النار... وأمامه الجنة... والمصير أحدهما...

وإلى ربك يومئذٍ المنتهى... وبدأت رحلتي إلى المنتهى... وسأقص عليكم... لو أذن لي ربي... .